مقطورة رقم ٩
قصة قصيرة
دعاء سيد

مقدمة

أتعرف ما هو الأروع من قراءة قصة مذهلة! أن نجد بها ما يشبهنا، ما يحددنا ويعرفنا، مرحباً بك، فأنت الحكاية.

إهداء

إلى ضحايا حادثة قطار سوهاج ٢٠٢١، وإلى ذويهم، أنتم موجودو ن في روح كبيرة، اسمكم جميل، ولكن الموقف غير سار، وعمتم مساءً .

إهداء خاص بالفتى الناجي من بين ركام الحادثة، موثقها الأول، والذي أجهل اسمه، إهدائي الأول لك، سلاماً لأرواح رفاقك.

(ليتك رحلت أنت وبقي سعيد) قالتها عينا أمي ، غص بها لسانها ،تفوهت بها نظراتها، وفضحتها حسرتها في كل مرة رمقتني فيها وتنهدت بأسى بعد تلك الحادثة، إن كان لزاماً على أحدنا أن يموت يومها فبالتأكيد ليس هو، ليته كان الجميع وليس سعيد! الاسم المحظور في بيتنا منذ عامين، والذي فقدناه إثر حريق نشب في المقطورة ٩ لقطار رقم ١٥٧ من قبل مجهولين ،والذي صادف لسوء الحظ وجود أخي بها، من يومها وأم ي تمنعنا جميعاً من ركوب القطار إياه، والعربة إياها، ولولا الضرورة الملحة لمنعتنا أنا ووالدي نهائياً من أن نستقل القطار!.. إثر ذلك الحادث تغير كل شيء في بيتنا، تغيرنا نحن! أصبح البيت كابوسا يطبق يديه حول أعناقنا، أودى ذلك الحادث بحياة أخي وفقدنا نحن البهجة الحلوة وطعم النور ولذة الضحكات، مات سعيد مرة، ومتنا نحن الثلاثةُ بعده ألف مرة. سعيد، أخي الأكبر، وفرحة أمي الأولى، طبيب العائلة، الحافظ لكتاب الله، الابن البارّ، والأخ الصالح، الفتى الذي يحمل جميع الكفاءات، أخي الخارق للعادة دائماً ، والذي ما كان عليه أن يموت كما تقول أمي بصريح العبارة، وكما تقول خلجاتي أنا!

(ليت يومها بقي هو، ومتُ أنا) أقولها كمن يستلُّ سيفاً أسطورياً من صخرة عتيقة، ألفظ كلمات أكلت أحشائي ليالي وأيام، أزيحُ ثقلاً من فوق كاهلي لذن ب لم ارتكبه، ثقلاً

استمر لعامين كاملين، وأحرر بذلك أمي من غصتها التي استمرت لنفس المدة، أعفيها امن أن تخدشني، فأجرحني أنا ، متغافلاً عن جملة تنشط بأذني بصوت جدتي رحمها الله، تحضر بكامل هيبتها في مخيلتي تسحب مقعداً، تنظر إلي وحدي، ترفع سبابتها، تردد مشددة على كل حرف (حذار مما تتمنى يا سيف، حذاااار) ، أتوارى من العجوز، أصرخ بصوت مكتوم)ليتني كنت أنا بدلا منه(يدفعني إلى الصراخ كل ما خنقته بداخلي. يسكت كل شيء بعدها، يحل الصمت على المكان كضيف ثقيل. عينا أمي ترقبني، أحس بنظراتها تخترقني كالرصاصة. عيناها المتقدة بالغضب أشعر بها تحد ق، وتحدق بي تكاد تحرقني. مطأطأً أهرب بنظري إلى كل شيء عداها، أجبن عن أن أواجهها، فلا شيء في هذا العالم أكثر رعباً من أ م غاضبة! لو أقطع لساني المسبب للمشاكل الآن! وفجأة يعلو صوت الهاتف مُلحاً، ينقذني، ويعفيني من مواجهة عاصفة عاتيه في مركزها أمي! (قادم يا حسن) أرد، أطبق سماعة الهاتف، أدس قلم حبر من على الطاولة في جيبي، وأهرب بنظري إلى مخرجي الوحيد، الباب. متجاوزاً أمي وجملة العجوز برأسي، أطلق خطواتي نحوه ، أهم بفتحه ولكن! ألحظ عند مدخلة، تقبع هناك كالفخ تماماً، يعيد علي مشهدها وابلاً من الذكريات لا ينتهي ! فجأة ،تلجني ذاكرتي، ومجدداً تعود

العجوز وسبابتها المنتصبة، والكرسي (اعدله، الله يعدل طريقك) تحذر. أنكمش، أتقلص داخل رأسي ،أغدو طفلا في العاشرة (لماذا يا جده!) أسأل، تشخص ببصرها كالممسوسة، منتصبة على كرسيها الخشبي كالممسوسة، تحدق في السماء، تشير بسبابتها نحو الأعلى (توقع علينا السماء!) تقول. أهرب بذاكرتي إلى واقعٍ مثير للشفقة، وأعود سيف كبيراً، أعدل من وضع الحذاء بسرعة، أنظر في ريبة إلى الأعلى، لا زال السقف قائماً! لم يسقط! صوت أمي يَخْلفُ أفكاري، يدفعها، يبددها، تصيح (ورب الكعبة يا سيف لو...!) ، أهم بفتح الباب، أنسلُّ منه، أترك لو خاصتها معقوفة في الهواء تتساءل عن احتمالية الجزء الناقص منها، أتعلل بموعد القطار ،أصفق الباب، أركض، أقفز من أعلى الدرج إلى أسفله متجاوزاً درجة، درجتين! أهرب من صوت أمي وأمرٍ أشركت فيه رب الكعبة، لا قبل لي بمواجهة أي منهما، أهرب من لعنة سعيد ،وأهربُ منيّ! تهرب معي جملة العجوز، تغزو رأسي، تقرع أذني كالناقوس، (احذر ما تتمناه!..) أتخطى درجات السلم، متجهاً بعدها للباب الخارجي للمبنى السكني الذي نقطنه، أتنهد بحنق ،كان سعيد يعفيني من كل هذا، من غضب أمي الدائم، وكيف أنها تراني طفلاً في الثالثة والعشرين من العمر لا يمكن الاعتماد عليه، من جدال أبي الذي لا ينتهي، أحكامه

المسبقة دائماً إزاءي، وإيمانه التام بأنني ساذج عديم الفائدة. أصابع اتهام متبادلة لكليهما يومياً ، و جدال مطول حول من كان له الدور الأعظم في صنع هذه الكومة عديمة الجدوى، التي هي أنا! في كل مرة يبدأ بها عراكهما الأزلي، أتكوم على الكرسي، أتنهد، أرقبهما ،أشهد شريطا متكررا لشجا ر مطو ل وحزين، لا ينفذ بمجرد أن يبدأ، بعدها أهرب إلي غرفة سعيد في الغالب! غرفة تعجُ بوجود أخي وكأنه الأمس، لها هالتها الخاصة، تشبهه تماماً، مكدسة بالكتب، والروايات في كل ركن وزاوية، تلك الكتب التي كان يحتال ليجعلني أقرأها في حضوره، صرت ألجأ إليها الآن بعد فقده، كلما أكلني الشوق. أيا ليت سعيداً هنا!...أتجاوز البوابة الرئيسية للمبنى، أواجه الشارع الخالي من البشر، أجر خطواتي إلى حيث منزل (حسن) بن خالي، بعد شارعين من هذا الشارع، بعدها سنكمل إلى المحطة القريبة من هناك، سيراً علي الأقدام، أنا إلي الجامعة في احدى محافظات الصعيد المجاورة التي تبعد عن محافظتي ثلاث ساعات، لأداء الاختبارات النهائية، وهو إلي خدمته العسكرية بالقاهرة. أتأمل خطواتي الوئيدة في شارع محرر من الأنفاس الآدمية عداي، أهرب ببصري إلى الأعلى ،أحدق في السماء، يتخللها شعاع أولي للشمس قبل الشروق يبُدد عتمتها ويضفي عليها صفاءً فريداً،

عصافير تغرد فوق الشجر وعلى أعمدة الكهرباء، يتُرَجم المشهد داخل رأسي إلى أطفال ينشدون "ذهب الليل طلع الفجر والعصفور..." ، أهز رأسي باستماته، أسكتهم، أطردهم! يركضون هاربين، يضحكون بصخب داخل رأسي، يفصلونني عن كل شيء عداهم، يواجهونني بأشخاص كنا عليهم، ولم نعد! سعيد، حسن وأنا. أهز رأسي علّه يسقط فتسقط معه كل الذكريات، لعليّ أنسى وأعود سيف بذاكرة صفر! يعاود الكرسي الخشبي تمركزه في مخيلتي يحمل الجدة وسبابتها (حذار مما تتمنى يا سيييف) أتنهد، ألعن، ماذا ألعن! أنا ملعون بذاكرتي أساساً ، ذاكرتهم سيئة هؤلاء الذين لا يمكنهم النسيان. أنظر بإهمال إلي الساعة المهترئة، بمعصمي تشير عقاربها إلى الرابعة والنصف صباحاً ، أتنهد بملل، جوقة الأطفال برأسي تغرد مكملة (وادي جزاة اللي مسمعش كلمة ماما تقولها) لا أقاومهم هذه المرة، أعلن استسلامي وأتنهد. تقودني قدماي إلى حسن! أراه ماثلاً هناك أمام منزلة بلباس الخدمة العسكري، ينتظرني. آه كم هو حلو شعور أن تصادف بالطريق من بوسعه انتظارك كحسن! أقدر تماماً وجوده، وأعلم جيداً كم أنني محظوظ به. بعد أن أصل إليه، نتبادل السلام، ومن ثمَّ الهموم، متجهين إلى محطة القطار معاً. دائماً كنت أقول: إن كان سعيد هو أخي الذي أنجبته أمي

وسلبه الموت مني، فإن حسن هو أخي الذي وهبته لي الحياة نيابة عن كل مساوئها. قدمنا إلى الدنيا في نفس اليوم، صافح النور وجهينا لأول مرة معاً، نشأنا، كبرنا، لطالما كان حسن رفيق درب، نخطو معاً ونتعثر معاً . في كل مرة كنت فيها أتهاوى، أسقط، وأنزوي بنفسي، كان يمد لي يداً، لم أكن لأدرجه تحت مسمى (صديق) ، ولم يكن ليناديني بصاحب! كنت اقول أخي، يرد حسن أخوي. ما بيننا كان أكبر منَّا نحن الاثنين، وحتى أكبر من أن يحُكى. نستغرق في الثرثرة، يسرقنا الكلام منا، فأتناسى جوقة الأطفال برأسي، وكلمات العجوز التي تنقر كغرا ب حط على جسد الوليمة، يتبدد الهم على وجه كلينا، يستحيل إلى ضحكات. بعدها نصل إلى محطة القطار، نقطع ثلاث تذاكر، ثم نجلس على أحد مقاعد الرصيف بالانتظار، ألمح رقماً بالتذكرة قبل أن أدسها في جيبي بإهمال، قطار ١٥٧، عربة..! (وينه صاحبك!) يسأل حسن، (من! محمود!) أستفزه مازحاً، يرمقني بطرف عينه. أدريه حسن لا يستسيغ محموداً، زميل دراستي، وصديق مشواري الممل في الذهاب والإياب، لكن لم أستطع أن أستوضح سبباً مقنعاً لشرارة عدم القبول بينهما، محمود فتى مهذب و مريح في المعاملة لأبعد الحدود، بالنسبة لحسن إنه صاخب بعض الشيء ولكنه جدع كما يصف دائماً نفسه ، وبجدارة. لو أسعفنا الوقت للحظات

أخرى تجمعنا معاً أظن أننا سنشكل فريقاً خارقا!. (لم تكرهه يا حسن!) أسأل، (لا أكرهه، ولكن أيضاً لا أحبه) يجيب مقتضباً، (لم!) أصرّ،(ياخي هدوءه في حد ذاته ورطه!) يقول حسن بنفاذ صبر باد. أبتسم، أهيأُ حنجرتي، أستحضر اقتباساً قرأته بأحد كتب أخي ، أتقمص نفسي في دور هزلي أجُيده "قالها العرَّاب: معظم الناس لا يحبون المنطوي و لا يستريحون له بشكل عام، انهم يفهمون ان تكون وقحاً او أن تكون صاخباً، اما ان تكون منطويا مهذبا غامضا فهم يظنون بك الظنون" أقول بملء شدقي، كديك متباهٍ، ينفش ريشه، يضحك حسن، يصفق، يحدث صفيراً من أسفل لسانه، متقمصاً بذلك دو جمهور بأكمله! يقترب مبتسماً، يلقي بذراعه حول كتفي، ويقول مازحاً (طيب يا شكسبير الغد، فهمنا). أتأمله بجواري ، كان دائماً هناك، كتفاً بكتف، وخطوة بخطوة! مُتقبلاً لشخصي، متفهماً لكافة تقلباتي، حسن يعلم. حسن يفهم. بعد حضور محمود، واقتراب وصول القطار، نقف على الرصيف، نحاذي مكان وقوف القطار، نتهيأ لقدومه. تقودني عيناي إلى سكة الحديد، مُلؤها الصدأ وغبار الزمان وكآبته، يعلو صوت محمود درويش في رأسي يردد أبياته "على محطة قطار سقط عن الخريطة.... "، تحتل جانب فمي ابتسامة لا تماثلها على الجانب الآخر، لا شيء هنا يا محمود درويش، لا زهرة

على سكة الحديد، ولا حمامة تؤي بيضها، لا أثر لزهر اللوز ،أو أقحوانة علي الرصيف، ولا حتى غيمة بيضاء في سمائي الداكنة، لم تخُلفّ لنا الأيام عدا الرماد وهذا الحصى بين سكك الحديد. ما الذي استحضرك الآن ولا شيء هنا يشبه أشعارك! لا شيء سوى أننا حقاً على محطة قطار سقط عن الخريطة ! أتأمل الناس من حولي، وجوهٌ أألفها جيداً، معبأة باليأس، التعب، ومحتقنة بالكثير من الحكايا والأسى. ناقمون على الحياة، على الناس، وربما على أنفسهم ، تجاعيد وجوههم، وتلك الخطوط الغائرة فوق ق جباههم تشي بكم المعاناة، وتعلن بفجاجة كم مرة إلى اليوم تمسك بها هؤلاء الناس بالحياة، ماذا خسروا في الطريق وماذا فقدوا!... كرمشة عيونهم بمجرد الضحك، لا يمكن لأي مشهد أ ن يكون أكثر بهجة منها، يالها من مفارقة! هؤلاء العاجزون! وفي لحظة عابرة جداً يمكنهم إقناعك وأنت على شفا الهاوية، أن الحياة ممكنة! ممكنة جداً . تنطلق صافرة القطار مدوية تعلن حضور صاحبها، نتأهب للقتال ،وفي ثوان يحتشد الناس، يتدافعون، يتضاربون، يكرهون، تتبدد الإنسانية في عيون بعضهم، تعكس لمخيلتي مشهداً تاريخياً، لإثم بشري قديم، لأخٍ يقتل أخاه! غراب ينعق فوق رأسي، أم أنه برأسي! أشهد بتلك العيون الخطيئة الأولى، كل يريد لنفسه! قابيل

يضحك، قابيل يندم. تستحيل بعض تلك الوجوه بالمحطة إلى ما لا يشبه البشر، أو أنهم يشبهون البشر إلى حد كبير! فالإنسان في النهاية يظل إنساناً على أي حال . وحين يتوقف القطار لنصعد، تحتدم المعركة، ونلقي بأجسادنا بين الجموع، تلتقطنا الحشود، تتقاذفنا بالسباب والأيادي! نطُحن بين كفي الرحى، تركُلنا الأقدام ، نركلها نحن.

نَلعن ، نُلعن. بمعجزة ما نلج إلى القطار، بأقل الخسائر الممكنة، كبعض الكدمات في أنحاء متفرقة من جسد ك مثلاً، كأزرار قميص مفقودة ، أو قطعة فارغة من الشعر في فروة رأسك، وبالتأكيد بعد تلك المطحنة البشرية، لا تخلو ثيابنا من آثار زيتية لبصمات أصابع متسخة. ولا يسعنا لوم أحد، جميعنا ضحية، هكذا أقُنعني دائماً. نلتقط أنفاسنا، يقودنا حسن باتجاه مؤخرة القطار حيث مقاعدنا، نتبعه بلا وعي. بعد وصولنا إلى مقاعدنا الرثة، نلقي بأجسادنا ككومة بالية ، كل في همه، حسن يتثاءب، يغط في نومه كالعادة، محمود في كتابه، وأنا في الطريق. قطار الغلابه، أو كما يسُمى (القطار المميز) ، أمعن النظر كثيراً في ما يستحق صفة مميز هنا! أهذه المقاعد الرثة، أم أنها تلك النوافذ المهشمة، ربما سقف القطار الآيل للسقوط فوق رؤوسنا جميعاً ، أو صوته النافذ الذي يهددك بالطرد من سكة الحديد في أية

لحظة، لا شك أنه عدد الراكبين لكل عربة والذي يعادل أضعاف حجم كل واحدة منها! أو ربما قد تكون هذه الرائحة الحامضية الكريهة التي يعج بها المكان، وهي خليط من كل شيء وأي شيء ! تتجمع معاً لتشكل غيمة كارثية على رؤوسنا تسبب حاجة ملحة للإعياء، لا أرجح أن سبب تميزه هو تسعيرته التي لا تتعدى بضع جنيهات، وهو بذلك يمثل فرصة ذهبية لأمثالنا ، مقارنة ببقية القطارات. لأن هذا الثمن الزهيد يفقد كل مزاياه مقارنة بمزايا هذا الصندوق الحديدي ذي العجلات فيما يشبه القطار...! يحدث اصطكاكه بالسكة صوتاً مقيتاً يستلني من أفكاري، فأعود بدور المشاهد على المقعد مرة أخرى، قطار الصعيد، وجوه الصعيد، ملامح باستطاعة الجميع أن يألفها، ويحبها، وجوه تفضح طيبة أصحابها، وتشي بشيء من السذاجة الدافئة . رغم أنف الأسى ، وخارطة الشقاء التي تشطب البهجة من محياهم لتعلن نفسها ، ما زال باستطاعتي أن ألامس ذلك الدفء، أن أراه، يخبو ويومض من بعيد. ثمُ تقودني عيناي إليّ، أرى انعكاس وجهي في الجزء الصامد من زجاج النافذة المهشمة، يا إلهي بِت لا أعرفني! من هذا! ملامح وتفاصيل وجه تصفني وحدي وأظل أجهلني، حزن كريه يخيم على وجهي ويألفه، لا يبدي نية للمغادرة، يتثاءب، يتململ، ويغط

في نوم عميق، وأعود شريداً ، وحدي، أفهمني ولا أعرفني. وبعد ساعة من انطلاقنا، ها هو ذا صوت توقف القطار مجدداً يعاندني ، محدثا صريرا مزعجا، ومستفزا للسمع عند وقوفه، ينتشلني من أفكاري، يوقظ حسن من غفوته، ومحموداً من كتابه. لكن مهلاً! ما هذا؟ كيف توقفنا هنا؟ هذه ليست محطة وقوف ، وما هذ ا المكا ن الغريب الغير مأهول بالحياة! هل هذه عملية سطو مسلح! هل يتم اختطافنا علانيةً الآن!... أنباء عن خطأ فني سيتم حله في خلا ل دقائق. همهمة بالعربة تعلو وتخبو، يكتسي الذعر الوجوه بسبب ذلك العطل المجهول، يتبعه الضجر وال لا حيلة. (عمار يا مصر) يقولها حسن ساهماً، يقرع بإصبعه الجزء الهش المتبقي من النافذة. أبحث حولي عن ما يشبه العمار ف لا أجد سوى الدمار.

نستغرق في الانتظار، ويطول الأمر كثيراً عن أن يكون مجرد بضع دقائق لأجل عطل فني طفيف! تعلو جلبة في القطار، ولغط اعتراض، يخنقنا ذلك الانتظار شيئاً فشيئاً، يختنق بنا الهواء، كلمات الجدة في رأسي تنشط مجدداً، تصيبني بقشعريرة لا أألفها، ولسبب أجهله، أحرك يدي باتجاه التذكرة المهملة في جيبي، أحررها، أفتحها! قطار ١٥٧ مقطورة رقم...! يجلس الرقم ٩ هناك متباهياً على الورقة ، أراه، لا أكرهه، لا أصنع من الأرقام ذريعة أو فأل

شر كأمي، لا ألومه. أقنعني مرة أخرى : الجميع ضحية. لمن! لا أدري ولا أريد الآن أن أدري. (عارف يا سيف!) ، يقول حسن، ينقذني من انسلاخ أفكاري، ألتفت إليه يتهيأ لقول شيء ما، يقوله! أراه يتحدث، ينظر إلي وحدي، يمنعني من سماعه ضجيج كثيف حولنا كصوت احتكاك قطار بسكة الحديد، ولكنه ليس قطارنا! أود لو أسمعه ولكن لمْ ...! فجأةً يعلو دو ي من الخلف، لا من فوقنا! بل من أسفلنا! صيحات مذريه في كل مكان، أتلفت حولي، أتبينُ تفسيراً لشيء لا يتسنى لي إدراكه، وفي طرفة عين تعلو بنا المقطورة، تهبط، وتنكمش. تدفعنا قوة خفية من الخلف ،تضخنا إلى الأمام! تضغطنا كعلبة تونا، يضيق المكان بشكل كارثي، ألتفت إلى حسن! ليس هنا على كرسيه... لست هناك على كرسيي ،أين محمود؟ ، لا شيء يكف عن الركض أو الحركة، وكلُ ش ئ يتموضع في غير مكانه، أهو زلزال! نصطدم بسقف القطار، بنوافذه، بأنفسنا، بكل شيء حولنا . نُرج في القطار بشكل متكرر كقنينة مشروب غازي، كانت لتفوقنا قيمة ربما! تفَقدنا الجاذبية الأرضية لثانية ،فنعلقُ في الهواء بلا أجنحة، مخالفين بذلك كل قوانين الطبيعة والفيزياء. وفجأةً نسقط، ويسقط علينا كل شيء دون أن يرحمنا! صراخ يستحيلُ أنيناً طويلاً لا يبرح أذني، شيء ما بثق ل فولاذي يحط على رأسي، يتموضع

فوقه بلا حراك، جسدي مخد ر بالكامل، لا أشعر به، ما زالت عيناي تعملان، تلتقطان مشهداً متقطعاً، لركا م آدمي، لدماء تنث من كل مكان، وأجزاء بشرية يغص بها المكان، يُهيء إليّ حسن هناك على بعد أمتار جامداً بلا حراك بين ركام الحديد والبشر، مطبقاً جفنيه، نائماً كعادته! لكن يا حسن... أتظن أن هذا الوقت مناسب... لتغفو! أعني، لنغفو...!

تطن أذني بصفير لا يتبدد، مذاق التراب في فمي، وفي حلقي، جفناي يصبحان أثقل من أي وقت مضى، بالكاد أستطيع رفعهما، أفتح عينيّ فيستقبلني قرص الشمس في منتصف السماء، يحرقهما. خدر يغزو كامل جسدي يشي بطول المدة التي ظللت بها ممداً هناك، لا يمنعني الألم الحاد في ساقي اليسرى من الشعور بزوايا الحصى الحارّة التي تثقبُ أسفل ظهري، خيوط تنز خلف أذني ومن مفارق شعري، بلل أسفل رأسي، أتحسسه، دم! أمرر أصابعي على الخيوط خلف أذني! عرق. أنجح في محاولة الجلوس، قدماي ممددتان أمامي وكأنهما لغيري، إحداهما تحررت من نعلها، والأخرى لا زالت. أنظر حولي أتبين إجابة لسؤال أجهله! عيناي لا تقومان بوظيفتهما على الوجه الأكمل غالبا، لا أرى شيئا سوى مشهد فسيفسائي التركيب، أعجز عن فك شفراته. تلتقط أذني جلبة حولي ،خطوات ثقيلة،

هرولة، صراخ... أنبش ذاكرتي هي الأخرى، ولأول مرة لا تسعفني. كغيمة سقطت من السماء، تحَط علامة استفهام كبيرة فوق رأسي ، أدفع جسدي بكل ما أوتيت من قوة لأستقيم، أمشي بذاكرة لا تحتويني باتجاه مصدر الأصوات، أجر قدمي العرجاء متغاضياً عن ألمها المريع، يتبدد المشهد الفسيفسائي شيئاً فشيء وتغدو الصورة أوضح ، بعد بضع خطوات أرتطم بكتلة آدمية، يختل توازني، يصرخ بي أحدهم ،لا أفهم لِم! لكنه يخبرني بضرورة أن أبقى ساكناً إلى حين قدوم الإسعاف لنقل الجرحى إلى المشفى! أواجه مشكلة في استيعاب هذا الكم من المعلومات (لم المشفى... ! وعن أي جرحى... !)... حادث تصادم ،اصطدم أحد القطارات بآخر عربتين من قطار ١٥٧و... دبر من قبل مجهولين) يقول شخص يبدو أنه يتحدث على الهاتف! تلتقط أذني كل حرف من فمه، تتلاشى ضبابة التساؤلات الكبيرة من فوق رأسي! تنهال الذكريات على رأسي دون رحمة ،كسهام خرجت للتو من نصالها باتجاهي وحدي. صور كثيفة لأشلاء آدمية بين ركام المقطورة، أنين موت، ورائحة دماء لا زالت بأنفي حارة، طازجة تحث كل خلية برأسي للتذكر، أملك الآن من أستطيع لومهم ولكنهم مجهولون.! أمعن في ما حولي، أناس يركضون، ويصرخون، والبعض الآخر مُلقون على الأرض بلا حراك، وجوه يكسوها الهلع

،آثار دماء تغطي الرمال أسفلنا ،رذاذ التراب يكون سحابة ضبابية فوق رؤوسنا، يخنقنا، صخب حزين ومأساوي يملأ المكان! وهناك على بعد أمتار شمالاً يقبع القطار بحال مذريه! تهشم الجزء الخلفي منه بالكامل، يعيدني المشهد إلى داخل المقطورة. يستثير خلايا عقلي بأمر مُلح ، ما كان علي أن أفوته، (حسن!) يصرخ عقلي ولساني معاً، أدوس عرجي مسرعاً، أتجه إلى القطار، متجاهلاً نداء الرجل بجانبي، (حسن، محمود) أصرخ بين الجموع، أنادي... لا رد. يقترب أحدهم يخبرني بضرورة أن نوقف سيل النزيف من رأسي! أسأله عن حسن، ولكن هو أيضاً لا يعلم، يضيق صدري، يستمر الرجل في إعاقة طريقي، ينبهني مجدداً لكمية الدماء الغزيرة، التي تتدفق من مؤخرة رأسي، (اللعنة على رأسي يا رجل، أقول لك حسن) . أتجاوزه هو أيضا أصبح على بعد خطوات من القطار المشؤم، يمسك بي أحد من الخلف، أهو نفس الرجل إياه! كم أود لو أدفعه بعيدا، ولكن قواي تخذلني،(سيف)ألتفت إلى صاحب الصوت كغريق وجد قشته ،أشده إليّ ، أعانقه (محمود!.. الحمد لله... أأنت بخير!) أنتبه إلى محمود، وهو في حالة يرُثى لها لا تمد للخير بصله، بالكاد يلتقط أنفاسه، ولكن كان ذلك كافياً بالنسبة لي، أن أراه ماثلاً أمامي، يتنفس، بملامحه الهادئة، والمألوفة، في خضم كل

هذا العبث . (علينا أن نجد حسن، تعال لنبحث عنه، لقد كان نائماً في القطار، رأيته آخر مر ة قبل أن أغفو، لابد أنه استيقظ الآن مثلي ويبحث عنا!). ينظر محمود إلي متعجباً، يعلو ملامحه التساؤل. ألمس بإصبعي فراغاً طارئاً بين أسناني نتيجة سنه مفقود، أبتسم مشيراً إلى فراغ سني (لقد فقدت سناً) أضحك، يراقبني محمود كمن يرى شبحاً! (ماذا ننتظر! تعال لنرى حسن) أتقدم بخطوة، يجيئ صوته من خلفي خافتاً بالكاد أسمعه، (لا تبحث عنه، لقد مات حسن يا سيف! حسن قد ما..) اصطكاك أسناني، وصفيرٌ حاد يقرع طبلة أذني، يمنعانني من سماع بقية جملته المشؤمة، عقلي يلح في الإنكار! إنكار كل شيء، قلبي يشبه نافورة مضطربة تنز دماً بصدري، أصم أذني من طنين مزعج يعاودها، (لا وقت الآن لهذيانك يا محمود! حسن هناك بانتظارنا، تعال لنخرجه فهو يحتاج مساعدتنا) ينظر محمود إلي، عيناه تحتقن بالدم والدموع، ويقين أجهل مصدره (لقد أخرجوا الجميع يا سيف، حسن أيضاً، كان ميتاً عندما أخرجوه، أنت...! أنت كنت واعيا حينها، لقد رأيته بأم عينك، رأيناه معاً عندما أخرجوه من بين أسياخ الحديد !) يهذي محمود بصوت لا يشبه هدوءه. تباعاً لهذيانه، تنهال علي ذاكرتي مشاهد لا أستطيع أن أميز إن كانت حقيقية، أم أنها أضغاث أفكار!. أتذكرني قبل دقائق من الآن جاثياً بلا حول خارج

القطار، متكأً على بعض ركامه الحديدي المتناثر هنا وهناك، صياحات وأنين، كتل آدمية تخرج من القطار على النقالات والكفوف، دموع ودم، رجال يركضون في كل مكان لإسعاف المصابين، رائحة الموت تغطي المكان كسحابة سوداء، لا أتذكر تماماً كيف تم نقلي إلى خارج القطار، وكل شيء يبدو ككابوس مرعب، أراني أنا ومحمود في مشهد سرابي بذاكرتي، جاثمين أمام جثة هامدة بقدمٍ مبتورة، تحمل ملامح وجه نألفها جيداً! لا نملك أن نبكيه (استيقظ يا حسن) كانت أول مرة أناديه ولا يرد! أقرصني علّي أصحو من الكابوس، لكن بلا فائدة، أرى النقالة تبتعد بجسد حسن إلى البعيد، دون أن يتسنى لي توديعه حتى...

أنفاسي تعذبني، أنظر إلى محمود أرجوه بعيني، أن يكذب شكوكي، ربما تلك الجثة لم تكن لحسن، نعم، هذا ما آمنت به للحظة، أهرب من المنطق، والحقيقة، يرمقني محمود بشفقة، يتهاوى بجواري، بالكاد يلتقط أنفاسه (البقاء لله) يقولها بنبرة أسى،... كيف تميد بي الأرض فجأة! ولماذا أفقد اتزاني! أيلتهم القطار كليهما، سعيداً وحسن! أيلفظني الموت، ويأخذك أنت! أتتركني يا حسن! وتترك حديثنا ناقصاً في منتصفه لم يكتمل! وتترك ذلك الكرسي شاغراً بجانبي في المقهى، يسألني عنك! ماذا أقول لوالديك! وللطريق من بعدك، هل أقول أتيت وحدي !... كيف أودع

نون الجمع التي كنت ألحقها بالأقوال والأفعال في وجودك! وأضع مكانها حرفاً بارداً كالثلج يمثلني وحدي! كيف أودع كلمة أخوي بصوتك! وكيف أودع صخبك وجنونك! أتتركني يا بن الخال من بعدك ناقصاً مرتين!... ماذا علينا أن نفعل يا حسن ...ماذا علي أن أفعل! ... أنظر إلى الأعلى حيث تحُدق بي السماء، لو تسقطين! وفي لحظة مباغتة تخذلني قدماي، أتهاوى بجانب محمود، تبقى السماء، وأسقط أنا.

الخامس من نيسان ٢٠٢١ .

تمت.